

عوامل ذاتية وتاريخية ودينية

اللغتان هما : اللغة اليونانية واللغة اللاتينية .
فقد كانت اللغة اللاتينية تستعمل من « كمبانيا » في
إيطاليا الجنوبية إلى الجزر البريطانية، ومن نهر « الراين »
إلى جبل الأطلس .

واستعملت اليونانية من أقاصي « صقلية » إلى
« شاطئ دجلة » ومن البحر الأسود إلى تخوم الحبشة .
لكن ما أضيق ذلك الانتشار إذا ما قابلناه بانتشار
العربية التي امتدت إلى إسبانيا وأفريقيا حتى خط
الاستواء وجنوب آسيا وشمالها إلى ما وراء بلاد
التتار فقد استولت لغة العرب الكتابية على جميع
أنحاء الشرق الإسلامي .

لقد أمست اليونانية واللاتينية في صف اللغات
الميتة منذ هبطت مدنيتهما . فما الذي حفظ اللغة
العربية حية بعد زوال مدينة العرب بقرون سبعة .

تشير الكتابة « مي » إلى أن الذي كان باعثا على
قيام الحضارة العربية الإسلامية هو الذي ما زال
حافظها إلى اليوم وهو القرآن . لقد كان الإسلام يرمي
إلى التوحيد سواء في الدين والسياسة واللغة ،
والعربية لغة الإسلام .

لذا ستظل اللغة العربية حية ما دام الإسلام حيا،
فمن الذي لا يعرف للقرآن فضله في بقاء العربية حية
ومن الذي يجهل أن اللغة العربية باقية ما بقي
الإسلام ؟ (1) .

من ذا الذي لا يعترف بما أدته هذه اللغة من خدمة
للإنسانية وبأنها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات
الماضي وحضارات اليوم . لقد اندثرت جميع أخواتها
السامية من آرامية وكنعانية وكلدانية وسريانية
وأشورية وعبرانية قديمة وغيرها . في حين بقيت هي

اللغة العربية من أعرق اللغات العالمية منبتا ،
وأعزها جانبا ، وأقواها جلادة وأبلغها عبارة وأعزها
مادة وأدقها تصويرا لما يقع تحت الحس وتعبيرا عما
يجول في النفس ، وذلك لمرونتها على الاشتقاق
وقبولها للتهذيب وسعة صدرها للتعريب .

نزل القرآن الكريم بها ، فجعلها أكثر رسوخا ،
وأشد بنيانا ، وأقوى استقرارا ، وبفضل القرآن صارت
العربية أبعد اللغات مدى ، وأوسعها أفقا ، وأقدرها على
النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي
تعيه الإنسانية .

واستطاعت في ظل عالمية الإسلام أن تتسع
لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وترتفع حتى تصعد
أرقى اختلاجات النفس فليس هناك معنى من المعاني
ولا فكر من الأفكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من
النظريات تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف
والكلمات تصويرا صحيحا حي المقاطع بارز القسما
واضح السمات ، هذه اللغة العريقة فتحت صدرها
لتراث الإنسانية الخالد ومعارف البشرية الراقية
الرائقة كما اتسعت لمقامات الأمة الإسلامية التي
شرقت بالحضارة وغربت .

برزت في أواسط القرن السادس الميلادي بفترة
تتمتع بقوة لغة بالغة أشدها فما عرف التاريخ لها
طفولة ، وما بدت إلا لتكون لسان الحضارة والعلوم
فانتقلت من شبه الجزيرة العربية إلى الأمصار القصية
بمفرداتها ومميزاتها .

ولقد اشترك مع اللغة العربية لغتان أخريان
بكونهما لغتين عموميتين لأفكار دينية وعقائدية ومذاهب
سياسية انتشرت بين شعوب مختلفة ، وهاتان

على رغم ما مر بها من عصور الركود . وما فتئت تفيض قوة وحيوية أنها الحصن المنيع الذي يحمي من طغيان العامية ، وأنها الرابطة النفسية القوية التي تجمع بين أهل البلاد المتباعدة وهي الصيغة الجميلة النابضة بالاحساس والتي نودعها مكنونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة وسعت مبادئ ومثلا سماوية لم تضق بها ولم تنكز عن احتمال اعبائها بل في ظل حضارة الاسلام مرتت وتفاعلت ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها ، وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم لها من خارج محيطها حتى تعلقت واتسعت آفاقها وانتشرت ظلالها وطوت في دوراتها القوي كل ما يقف في طريق انبعاثها وتفوقها وكل ما يعرقل انطلاقها ويثقل اجنحتها عن التحليق ، واستطاعت بقوتها الذاتية أن تقشع سحب اللهجات الفاضلة وتخرج من كل جولة - جالتها في صراع - بفداء مفيد ودماء جديدة وقدرة فائقة وطاقة خلاقة معطاءة .

هذه اللغة التي زادها القرآن دعما وتأصيلا اخذت تفرض سلطانها في بيئات جديدة متفرقة في اقطار الارض ، ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من اواسط « آسيا » حتى جبال « البرانس » في شمال « اسبانيا » ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها او تحول بينها وبين سيادتها وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القرآن . وقد يكون من اسبابه قوتها وجمالها الفني بحيث لم تستطع ان تقف لها لغة من لغات هذه البيئات . ومهما تكن الاسباب فانها أصبحت لغة قومية لامم وشعوب قد تختلف وتباين في اجناسها واصل نشأتها ولكنها تألف وتتحد في عروبتها . فهي جميعا تنضوي تحت لوائها وتتلقن لسانها ، وتعب من قرآنها وشعرها وبيانها ، ولا تلبث ان تعيش لها وبها ، وتحبب فيها حياتها المعنوية الادبية والعقلية وهي ما تزال الى اليوم لغة شعوب الشرق العربي من الخليج الى المحيط الاطلسي تنهض جذوتها وترسل ضوءها الى كل مكان حتى في أمريكا ، فقد تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء في مجلاتها وآثارها الادبية .

والعربية اجتازت آمادا واحقابا متطاولة من الزمن ، وقد المت بها خطوط كثيرة ولكنها وقفت في طريقها كالصخرة في مجرى السيل يلم بها ثم يزايلها . وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور بل لقد تطورت اطوارا كثيرة ، بحكم ما التقت به من ثقافات .

وقد حولت اليها وصبت فيها ثقافات الفرس واليونان والهند واسبانيا اللاتينية فوسعتها جميعا ، وتمثلتها تمثلا منقطع النظير ، وكأنما أصبحت نهرا كبيرا تندفع اليه جداول شتى من الفكر والمعرفة ، وهو لا ينحرف ولا يغير وجهته بل يجري غريرا زاخرا متدفقا مفتوحا كل ما يصادفه من حواجز وسدود ، بين الامم والشعوب ، ولقد وحدت اللغة العربية بين هذه الشعوب والامم ، فاذا هي جميعها عالم عربي واحد مهما تدانت او تباعدت ومهما شرقت او غربت (2) .

لغة كريمة انضجها الزمان المتطاول في البقاع الشاسعة من الجزيرة العربية واخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ . لغة كاملة معجبة تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد تتجلى معانيها في اجراس الالفاظ ونبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب وبسمات الحياة ، فالمعاني المحسة والمقولة مبنية في الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعت له لشبيهه ادراكا للفرق الدقيق بينهما فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم ، واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صفة دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه وحاجبيه وانفه وفمه واسنانه وغيرها باسماء خاصة وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم انظر الى هذا الاحساس الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم او تحس بها الكلمة نفسها فتعطي او تأخذ صوتا مكافئا لهذه الكلمة . فالكلمة الاصلية لها اقوى الاصوات وهو الضم والاخترايا لها الفتحة والجر ، وما ارى هذا الا ضربا من الحياة في الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه .

واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة . فيها مادة ووزن . فخذ المادة او اخلقها او استعرها من لغة اخرى ثم صبها في قالب من قوالب الاسماء والافعال وصورها بالقوالب او الاوزان . فمن سمع فاعلا او مفعولا ، ادرك ان هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلزمه في المواد كلها . وبهذا

امتازت اللغة العربية واستبانة خصائصها حتى نفت عن نفسها كل كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأسماء أوزان وللأفعال أوزان فما لا ترنه هذه الأوزان فهو أجنبي ، وبهذا بقيت على الدهر المتناول خالصة نقية صحيحة قوية .

وقد امتحنت هذه اللغة العريقة واختبرها التاريخ الطويل فلم تعجز ولم تضق بكل ما أدركه الإنسان من علم وثقفة من صناعة بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والأمم المختلفة غير كارهة ولا مكروهة، وقد أراد الله لها أن تكون لغة كتابه وترجمان وحبه وبلاغ رسالته فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورا في كلمات وآيات . وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للإنسان عقل وقلب . وما استقام له احساس وإدراك .

وتقلب الزمن وتوالت المحن واثارت الفتن وهي ثابتة ناضرة رائعة ثبات قوانين الله وروعة كواكبه محبت لغات وخلقت لغات وبدلت لغات وحرفت لغات والعربية هي العربية لم تمنع ولم تغير ولم تبدل . ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق هذه العربية لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الأمم الأخرى وأولتها من العناية والحفاوة أكثر مما أولت لغاتها أحيانا فصارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق . ولا تزال على تبدل الأحوال وتوالي الغير لغة أدب وعلم في الأمم الإسلامية غير العربية وما تزال لغات هذه الأمم مترعة بالفاظها . وما تزال تستمد العربية . وقد حوت على مر العصور أدبا لا تحويه لغة أخرى أدبا موطنه ما بين الصين إلى بحر الظلمات وزمانه أربعة عشر قرنا ولا تعرف في آداب العالم قديمها وحديثها أدبا اتسمت به المواطن هذا الاتساع وامتدت به الأعصار هذا الامتداد .

فالعربية بأهلها وموطنها وخصائصها وآدابها وتاريخها العربية بقرآنها خالدة باقية على الخطوب والعصور لغة دين وعلم وأدب وحضارة وإنسانية (3) .

ولست أعرف في اللغات القديمة لغة بلغت مبلغ اللغة العربية من القوة والإيد ومن السعة والانتشار ومن القدرة على السيطرة على العالم القديم في أكثر أجزائه .

وقد كانت قبل اللغة العربية لغات قديمة أخرى، انتشرت في الشرق وسيطرت على سياسته وإدارته وثقافته ، ولكنها لم تبلغ في أي وقت من الأوقات

أعماق الشعوب الشرقية ولم تستطع أن تغير من نفوس الشرقيين ولا أن تغير من لغاتهم وإنما فرضت نفسها هذا الفرض السياسي المعروف فكانت لغة الحكام ولغة الإدارة ولغة الثقافة الرسمية .

وظلت الشعوب مع ذلك تتكلم بلغاتها الخاصة وتتوارث آدابها الخاصة . فالأمة اليونانية فرضت لغتها على انشراق عشرة قرون . منذ عهد الاسكندر إلى الفتوح العربية وكان الحكام في أول أمرهم من اليونانيين وكانت إدارة البلاد الشرقية ولا سيما مصر والشام وما اليهما كانت الإدارة فيها يونانية وكانت اللغة الإدارية والسياسية هي اللغة اليونانية . وكانت لغة الثقافة الرسمية في المدارس وفي المعاهد وفي الإدارة - بعد انتشار المسيحية - هي اللغة اليونانية ولكن الشعوب التي كانت تسكن هذه البلاد الشرقية ظلت محتفظة بلغاتها الخاصة فكان المصريون محتفظين بلغتهم القبطية وكان السوريون وأهل الجزيرة والعراق محتفظين بلغاتهم السامية والآرامية وما يتفرع منها ولم تستطع هذه اللغة اليونانية أن تؤثر في هذه اللغات ، ولا أن تحول الشعوب عن لغاتها بحال من الأحوال .

وجاء الرومان بعد اليونان وحاولوا فرض لغتهم ومع ذلك فقد ظلت الشعوب محافظة على لغاتها الموروثة وآدابها الموروثة وعلى تقاليدها كلها إلى أن جاءت اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي ودون أن يتخذ السلطان العربي أي قوة لفرض هذه اللغة ودون أن تتخذ الحكومات العربية على اختلافها أي إجراء لحمل الشعوب على أن تتكلم اللغة العربية . ننظر فإذا هذه اللغة العربية تنتشر شيئا فشيئا وبسرعة مدهشة ولا تلبث أن تصبح ، هي العامة لكل البلاد التي فتحها المسلمون في شرق الدولة الإسلامية وغيرها .

في شرق الدولة الإسلامية في بلاد إيران وفي جزء من بلاد الهند . كل هذا القسم كان يتكلم اللغة العربية ويكتب بها ويحاول أن يغالب العرب عليها وفي المغرب وفي الشام وفي مصر وشمال أفريقيا وفي الأندلس كذلك غلبت اللغة العربية كل اللغات التي كانت منتشرة في كل هذه البلاد وأصبحت هي لغة الحديث وهي لغة الإدارة وهي لغة الثقافة وهي لغة الدين .

فاللغة العربية قد انتشرت وحدها بقوتها الخاصة وبقوة الإسلام وقوة القرآن الكريم ، وبهذه القوة وحدها استطاعت اللغة العربية أن تكون لغة عالمية لأول مرة

فى التاريخ الانسانى . لغة عالمية . بأوسع معاني هذه الكلمة .

ولاول مرة فى التاريخ نجد لغة تنتشر الى هذا الحد . فقد انتشرت اليونانية فى جميع البلاد الشرقية ولكنها لم تصل الى اعماق الشعوب ولم تغير لغة من اللغات التي كانت قائمة فى تلك الايام فى بلاد الشرق ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغات ، غلبتها وتممقت شعوبها ووصلت الى اعماق الشعوب وحولت الالسنه عن اللغة القديمة الموروثة الى هذه اللغة نفسها ، لغة العرب ، لغة القرآن ، والرومانيون استطاعوا ان ينشروا لاتينيتهم فى الغرب الأوربي فى فرنسا وفى بريطانيا وفى اسبانيا وحاولوا ان يجعلوها لغة منتشرة فى شمال افريقيا فلم يفلحوا الا قليلا ولكن اللغة العربية استطاعت ان تقهر اليونانية فى الشرق وان تقهر اللغات الشعبية التي كانت منتشرة فى هذه البلاد الشرقية وان تقهر اللغة الفارسية نفسها ثم ان تقهر اللغة اللاتينية فى المغرب العربي وفى الاندلس وان تصبح هي اللغة العالمية التي يتكلمها الناس فى الشرق والغرب جميعا .

هذه اللغة منذ تم لها الانتشار لم تكن لغة حديث فحسب ولكنها كانت لغة حديث ولغة سياسة ولغة ادارة ولغة دين ، وكانت فى الوقت نفسه لغة التفكير والانتاج الادبي والعصري . وفى اقل من قرنين كانت هذه اللغة قد استطاعت ان تسيغ كل الثقافات التي كانت معروفة فى العصور القديمة .

اساغت ثقافة اليونان على سعتها وصعوبتها وعلى عمقها واساغت فلسفتهم وعلومهم وطبهم وفنونهم العملية ايضا . واساغت ثقافة الفرس وثقافة الهند . واساغت بعد ذلك الثقافات التي كانت متوارثة بين الامم السامية والثقافات التي نشأت عن التقاء الساميين بالامم المختلفة والتي نشأت عن توارث التوراة والانجيل بين تلك الامم المسيحية فى هذه البلاد الشرقية والمغربية . وبعد ذلك جاءت المعجزة الكبرى وهي ان هذه اللغة العربية قد انتشرت بطريقة مذهشة واساغت كل الثقافات بهذه الطريقة المدهشة ايضا (4) .

فهي بلا شك افصح اللغات واكملها واتمها واعذبها نقل الناس اليها الكتب المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور وسائر كتب الانبياء من السريانية والعبرانية الى العربية . ونقلوا اليها ايضا ما قالته حكماء العجم

باللغة الفارسية . وسائر ذلك من كتب الفلسفة والطب والنجوم والهندسة والحساب باللغات اليونانية او الهندية (5) .

ولهذا كله اسباب منها التاريخي ومنها الذاتي ومنها الديني .

فالاسباب التاريخية ترجع الى كون اللغة العربية آخر لغة انفصلت عن اللغة الام السامية الامر الذي مكنها من ان تأخذ ما فى السامية من مزايا وتتجنب الى حد بعيد كثيرا من مزالق مما لم يحصل للسريانية والعبرية اللتين سبقتا اللغة العربية فى الانفصال عن السامية الام .

ومما هو معروف مما تقدم ان اللغة العربية تنتمي الى طائفة اللغات السامية فهي على حد قول الكاتبة العربية « مي » ان اللغة العربية ثالث اصول جوهرية ثلاثة - الارامية والكنعانية والعربية - فالارامية تشمل الكلدانية والسريانية والاشورية « الميتة منذ زمن بعيد » وهي لغة عامية يقال ان السيد المسيح كان يخاطب بها تلاميذه . انشعبت الكنعانية عن العبرية والفينيقية . فالعبرية لغة اليهود المقدسة ومع انها تختلف اليوم كثيرا عن العبرانية الاصلية ، فانها ما زالت مستعملة عندهم فى الطقوس الدينية . ولهجة من الفينيقية وهي البونيقية استعملت فى قرطاجنة وعلى شواطئ اسبانيا مدة طويلة .

اما العربية فتشمل العربية الفصحى ، ولهجات مختلفة تكلمتها القبائل القاطنة فى جنوب بلاد العرب وبلاد الحبشة وغيرها ، وهي اللغة التي سمعت بنصيب البقاء على حين ان اخواتها وبنات عمها دخان فى عالم النسيان منذ امد بعيد ، وبعض خصائصها اللغوية كجمع التكسير مثلا يميزها عن العبرية والارامية فيجعلها اوسع منهما معنى واتم نظاما (6) .

اما السبب الذاتي : فهو تابع من صميم العربية ، من طبيعتها صوتيا وحرفا او حركة وحرفا اذ ان لهذه الطبيعة مجالا أرحب ، وشمولا أوسع ارتضته او ارتضاه لها الناطقون بها أعني به المجاز والمرادف والاشتقاق .

فالحرف العربي حرف مرن مطواع يمكن تركيبه على صور وهيئات تخرج منها الالفاظ والكلمات ، وقد نمت هذه المرونة والطواعية منذ نشأة اللغة .

والشكل وهو حرف صغير يتغير موضعه من اللفظ فيحدث تلفظا جديدا يحمل معاني جديدة .

والفاظ عشرة بل لعل المعاني في حقيقتها تفوق العشرة .

وهذا كله غير تصريف الفعل الذي لم نذكره لانه ليس من الاشتقاق وهو التصريف الذي يتناول اثنتي عشر صيغة موزعة على الضمائر .

والمرادف : وهو اللفظ الذي يؤدي نفس المعنى ويختلف عن مرادفه في النطق والحرف اختلافا قد يكون كلياً وهو باب واسع من اوسع ابواب اللغة العربية . وليس ادل على ذلك مما صنعه بعض المؤلفين القدامى مثل عبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى عام 320 هـ في كتابه « الالفاظ الكتابية » والذي جعله في ثلاثمائة وستين باباً . جمع في كل باب من الالفاظ المختلفة حرفاً المتقاربة معنى ما يعسر حصره ، وعلى سبيل المثال نذكر باب حسن المنظر : منظر حسن . نظير . بهيج . بهي . رائع . زاهر . رائع . قسيم . وسيم . مرونق . ففي هذه الالفاظ المترادفة وصفنا منظراً حسناً .

اما جمال العربية فانه ناجم عن الدقة والجرس وتجانس التركيب والاستعارة والتجنيس والطباق والاعجاز والالتفات والتمام والاستطراد وحسن التضمن وتجاهل العارف والكتابة والتشبيه والمساواة والاشارة والارداف والتتبع وائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت والتوشيح والترشيح والتوشيع والايغال والاحتراس والمواربة والترديد والتعطف والتفويف والتسهم والتورية والاستخدام والتفاير والتسميط والمائلة والتجزئة والتسجيع والترصيع والتصريع والتشطير والتعليل والتطريز والعكس والتبديل والاغراق والفلو والاطراد والتوهيم والتكميل والمناسبة والتفريغ والتكرار والابداع والاستعانة والموازنة والتذليل والمشاكلة والتهديب والتاذيب والحل والانسجام والعقد والتعليق والادماج والازدواج والاتساع والمجاز والايجاز والتوليد والتكيب والاتفاق والالتزام والتدبيح والتزيح والاستقصاء والبسط والابضاح والتشكيك والعمفوان والعيادة والانتقال والفرائد والنزاهة والافتنان والمراجعة والمقارنة والمناقضة والانفصال والابداع والابهام والسلب والايجاب وغير ذلك كثير مما عني به علماء البلاغة وقد يكون من السهل ايراد الشواهد على هذه العناوين الجمالية في اللغة العربية وقد يكون من الاسهل تحديد هذه الصفات التي ترد تحت الوصف

اما المجاز والاشتقاق والمرادف فانها منابع رئيسية لمرونة اللغة العربية كما انها ثروة رائعة من الجمال الذي تتحلى به ، فالمجاز وهو استخدام اللفظ لغير ما وضع له بسبب علاقة ذات قرينة من ان يفهم اللفظ بمعناه الاصلي ، وجاء ان المجاز عبارة عن تجوز الحقيقة . بحيث يأتي المتكلم باسم موضوع لمعنى فيختصره اما بان يجعله مفرداً بعد ان كان مركباً او غير ذلك من وجوه الاختصار ، واما ان يذكر ما هو متعلق به او كان من سببه لفائدة .

والمجاز جنس يشتمل على انواع كثيرة كالاستعارة والمبالغة والاشارة والارواق ، والتشبيه والتشبيه وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعه للمعنى المراد (7) .

هذا انما قد فسح للعربية ميداناً خصباً لا يحده بسهولة ، فلو قلت ان محمداً يلقي الدرر ادرك السامع مرادك وهو ان محمداً يتكلم كلاماً فصيحاً بليغاً جميلاً ولو قلت : لقد جادت السماء ولبست الارض حلة قشبية ادرك السامع ان مطراً قد هطل ونباتاً ظهر . ومثل قول جرير .

اذا نزل السماء بأرض قوم

رعيناه مذان كانوا غضاباً

يريد اذا نزل مطر السماء رعينا ما ينبت هذا المطر النازل (8) .

والاشتقاق : هو اخذ كلمة من اخرى تشابه فيها بعض الحروف ، فاذا تشابهت الحروف الاصلية اسفرت عن معاني قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة عن المعنى الاصلي وهذا الاشتقاق قد اضاف الى اللغة العربية ما اضافته المجاز لفظاً « بصر » التي تفيد النظر والرؤية وكذلك الخبرة والدراية لك ان تشتق منها فوق قواعد الاشتقاق افعالا واسماء لكل منها معناها الخاص فانك تشتق منها « بصر » باصـره . مبصر . بصير . متبصر . مستبصر .

وكل هذه اسماء تختلف فيما بينها اختلافا معنوياً واضحاً . اما الافعال فهي لا تقل عن هذه الاسماء كثرة وتنوعاً ، فلك ان تقول : يبصر . يتبصر . يتباصر . يستبصر . ولكل منها معنى يختلف اختلافاً عن معنى الفعل الآخر . فالاول ينظر ويرى ، والثاني يستعلم ويتحقق ، والثالث يدعى الرؤية او الخبرة ، والرابع يحاول النظر او الادراك . فلو احصينا ما اشتققنا من اللفظة « بصر » لوجدناها عشرة الفاظ ، لها معان عشر

صورتها اللغة العربية تصويرا هو من جمال القوة في
الندوة (9) .

واذا اردنا المزيد من التدليل على جمال العربية
فالشواهد ميسورة في كل ضرب من ضروب الكلام في
الشعر والنثر والحكمة والخطابة . قال المتنبي يصف
جيش سيف الدولة الحمداني :

خميس يشوق الأرض والغرب زحفه
وفى اذن الجوزاء منه زمام

تجمع فيه كل لين وامنة
فما تفهم الحداث الا التراجم

وقال البحتري يصف الربيع :

انك الربيع الطلق يخال ضاحكا
من الحسن حتى كاد ان يتكلما

وقد نبه النيروز في غسق الدجى
اوائل ورد كن بالامس نوما

يفتحها قطر الندى فكانما
يبث حديثا كان قبل مكتما

هاتان صورتان من صور التعبير الشعري : في
الاولى تجد الفخامة والقوة والسبك ، وفي الثانية تجد
الركة والمذوبة والرخامة .

صورت اللغة في الغاظهما ما اراده الشاعران او
صور الشاعران في كل منهما ما اراده تصويرا تمازجت
فيه الالفاظ بالمعنى فكانت روعة التعبير في الصورتين
اللتين رسما موضوعين مختلفين ، احدهما الجيش
وضخامته وجلبته ، والثاني : الربيع ونعومته ورقته
وبهاء (10) .

ولا بأس من ايراد شاهدين آخرين وليكونا في
موضوع واحد هو الرثاء اجاد فيه كل من الشعاريين
اللذين رسما صورة للحزن على الفريد ومكانته .

قال ابو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي ، وقد
قتل في معركة فر فيها جنده وبقي هو في وجه عدوه
« بابك الخرمي » :

فتى مات بين الطمن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر ان فاته النصر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده
اليه الحفاظ المر والخلق الوعر

لشيء واحد مثل « منظر حسن » ولكن الصعوبة تكمن
في تصوير الصفات للسامع . تصويرا ماديا يمسك
بالانامل . ونمل هذا التصوير المادي ليس من متطلبات
التدليل على جمال اللغة - اية لغة كانت - والقول في
جمال لغة ما عند اهل تلك اللغة يعتمد مقاييس ذوقية
ومادية تنظمها مشاعر وقواعد ، فالمشاعر هي وليدة
الحس الذي يقرع العقل والقواعد هي الادوات المصنوعة
لاجزاء القياس ونحن حين نطبق هذه المقاييس على
جمال لغة العرب نخرج بنتائج مدهشة رائعة .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : « والنجم اذا
هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان
هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة
فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب
قوسين او ادنى » .

جرس سحر آخاذ في تقطيع لفظي عجيب
يصوران موضوعا جليلا ببراعة معجزة بدات الآية
الكريمة بالقسم بالنجم الذي كان بعض العرب يحلونه
محل الاله ولكن القسم ليس بالاله المزعوم فحسب بل
به حين بهوي ويهبط من عليائه التي خدعت بعض
الناس فجعلوا منه الها غير الله . فهذا السقوط الذي
يجرح الالهية والذي اورده القرآن الكريم مع
القسم له ابعاد معنوية خارقة . ثم نفت الآية الكريمة
عن الرسول العربي صفة الضلال التي اتهم بها
الجاحدون اولئك الذين بلغ الضلال بهم ان عبدوا النجم
الذي ليست له مناعة ضد السقوط ، ومضت الآية
الكريمة في تنزيه القرآن الذي نزل على الرسول الامين
عن الهوى والعاطفة ، وقال فيه انه وحي من الله
الخالق القوي الذي امر الرسول بحمل رسالة القرآن
فصدع بالامر ونهض يبشر قومه بهداه وينذرهم في
تنكرهم لرشاده . ولم يكن هذا الوحي في ذلك يدعو
الى التشكك او التشكيك بل كان والرسول الكريم
اقرب ما يكون الى ربه سبحانه وتعالى . انه كان على
بعد ما بين طرفي القوس والعرب يعرفون قصر
المسافة بينهما حق المعرفة لان القوس تعيش بين
ايديهم وتصحبهم طول الوقت .

هكذا استطاعت اللغة العربية ان تقسم بالقدس
جهلا وضلالة وتجرح تقديسه وتنفي عن الرسول
مزاعم المشركين وتسمي الوحي وتصف قرب
النبي في حالة الوحي وتبين ان الدعوة ليست من هوى
وعاطفة انسان بل ارادة ربانية . كل هذه المعاني

بالعرب معتقداتهم واعرافهم وعوائدهم . ان العربية
أُست في فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء
انفسهم أداة لصياغة القريض في حين ظلت اللهجة
البهلوية مستعملة في الجبل ، وقد استمر نفوذ
العربية في القرون التالية بل صارت العنصر الجوهري
في الاوردية التي هي لغة الثقافة عند الهندوس والتي
يعتبر نصف مرداتها تقريبا من اصل عربي (12) .

قال جورج ريفوار : لقد ظل نفوذ اتباع محمد
لازباء لم يتغير ، ففي نواحي افريقيا وآسيا التي دخلوها
من المغرب الى الهند تغفل ذلك النفوذ في الاعماق الى
الابد ولم يستطع فاتحون جدد استقصاء دين العرب
ولغتهم (13) .

ان اللغة العربية التي بلغت مبلغا كبيرا من المرونة
والثروة في العهد الجاهلي كأداة للتخاطب وكمصهر
لصفل التعبير عن ادق الاحساسات وأرق العواطف
ادركت في القرن الرابع الهجري في عنفوان العصر
العباسي أوج كمالها .

وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي
في القرن الرابع الهجري ، ووصف فيكتور بيرار اللغة
العربية في ذلك العصر بأنها أغنى وأبسط وأقوى وأرق
وأمتن وأكثر اللهجات الانسانية مرونة ، فهي كنز يزخر
بالمفاتيح ويعيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق
الحاشية مهذب الجوانب ، رائع التصوير ، وأعجب ما
في الامر - وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الاخرى -
ان البدو كانوا هم سدة هذه الذخائر وجهابذة النثر
العربي جبلة وطبعا ومنهم استمد كل الشعراء
تراثهم اللغوي وعبقريتهم في القريض (14) .

هذا وقد عربت أهم المصنفات اليونانية في عهد
الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب والعلماء على
دراسة الاداب الاجنبية بحماس شديد وقد خضعت
العربية لمقتضيات الاصلاح الجديد ، فانتشرت في
مجموع انحاء آسيا ، واستأصلت نهائيا اللهجات
القديمة وقضت على اللاتينية في شبه الجزيرة
الايبيرية (اسبانيا والاندلس) .

ان نفوذ اللغة العربية أصبح بعيد المدى حتى ان
جانبا من اوربا الجنوبية ايقن بنفوذ العربية وأوضح
(جورج ريفوار) ان زجال الكنيسة - في اوربا الجنوبية
اضطروا الى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل
قراءتها في الكنائس الاسبانية ، وان « جان سيفيل »
وجد نفسه مضطرا الى ان يحرر بالعربية معارض الكتب
المقدسة ليفهمها الناس .

فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت اخمصك الحشر .

كان بني نيهان يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر

اما جرير فقد رثى زوجته فقال :

لولا الحياء لهاجنى استعمار
ولزرت قبرك والحبيب يسزار

ولمت قلبي اذ علتني كبرة
وذوو التمام من بنيك صفار

واذا سريت رايت نارك نورت
وجها اغر يزينه الاسفار

كان الخليط هم الخليط فاصحوا
متبدلين وبالديار ديار

لا شك انك حين سمعت ابيات ابي تمام في رثاء
الطوسي استشعرت الابهاء والجلد والانفة والشجاعة
وحين سمعت رثاء جرير زوجته احسست بالاسى
واللوعة والالم ، وكلتا الصورتين الشعريتين لمصور
واحد هو الرثاء ، وان استخدمت الربشة من قبل
رسامين هما الشاعران الرائيان .

ومن جمال اللغة العربية الذاتي غناها بالالفاظ
والكلمات التي تتشابه في اللفظ وتختلف في المعنى .
ومن ذلك ما جاء في المقامة الحلبية للحريري .

اما السبب الديني فهو في القرآن العظيم واسلوبه
المعجز . واللغة العربية بفضل القرآن الكريم صارت
أبعد اللغات مدى وأبلغها عبارة وأغزرها مادة وأقواها
جلادة وأدقها تصويرا لما يقع تحت الحس وتعبيرا
عما يجول في النفس تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات
الفكر وتصعد حتى تصل أرقى اختلاجات النفس
والضمير واسعة سعة السماء ، عميقة عمق البحر (11) .

قال م . فنتيجوا مؤلف كتاب « المعجزة العربية » :
ان سرعة انتشار اللغة العربية ترجع الى الثمار المادية
والروحية التي جنتها من الاسلام أكثر منها الى القرار
الذي اتخذته الامويون بجعل العربية اجبارية في الوثائق
الرسمية . وخلال القرن الثاني الهجري بدا انحلال
مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الأدنى وتمخض
هذا الانحلال عن اكبر فوضى في اللغات والاديان فقد
بدأت شعوب عريقة في الحضارة كالمصريين والهنود
تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على اثر احتكاكها

اما في فرنسا فقد أكد (جوستاف لوبون) في كتابه « حضارة العرب » ان للعربية آثارا مهمة في فرنسا نفسها . وقد لاحظ المؤرخ الفرنسي « سديو » عن حق ان لهجة ناحيتي : اوفيرني ولیموزان زاخرة بالالفاظ العربية ، وان الاعلام تنسم في كل مكان بالطابع العربي .

وكان من الطبيعي ان يزود العرب كلا من فرنسا وإيطاليا - في القرن الثامن الميلادي - بمعظم مصطلحاتها البحرية على انها تركت اثرها في مصطلحات الجيش والادارة والصيد والعلوم وغيرها . وقد لوحظ نفس التأثير في صقلية .

ومما يجدر ذكره ان اول اتجاهات أوروبا من الاقتباس العربي كان في الميدان العلمي ، ولقد قال المستشرق « ماسينيون » ان المنهاج العلمي قد انطلق اول ما انطلق باللغة العربية ، ومن خلال العربية في الحضارة الاوربية ، وان اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي ، وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا هو العنصر الجوهرى للسلام بين الامم .

وقد أوضح « جوستاف لوبون » ان العربية أصبحت اللغة العالمية في جميع الاقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية . وقال المستشرق ماسينيون ان العربية بقيمتها الجدلية وانفسية والصوفية استطاعت ان تضيفي سربال الفتوة على التفكير الغربي .

ومما لا يسوغ انكاره ان الكثير من المصطلحات في انواع الفنون المختلفة - في أوروبا - تستمد عناصرها

من اللغة العربية مثل الكحول والاكسير والجبر . وقد ذكر ليفي بروفنسال ، ان الاسبان استمدوا معظم اسماء الرياحين والازهار من اللغة العربية ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران ومجموعة مصطلحات الراي تقريبا - كما قال الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في كتابه « معطيات الحضارة » - هي من اصل عربي كما تحمل الحلى في اسبانيا اسماء عربية ويتجلى نفس التأثير في الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت اسبانيا وبواسطتها أمريكا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .

وقد لاحظ عالم ايطالي كبير ان معظم التعابير العربية التي تفلطت بكيفية مدهشة في لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري ولكن بفضل اشعاع الاسلام الثقافي (15) .

وان اللغة العربية هي بلا شك اداة الفكر . وهي تعتمد على المناخ الفكري لاداء المعاني الحضارية اذ ان الحضارة والمدنية والثقافة لا بد لها من الاداة ، وان المقومات الثقافية لاي امة من الامم تتمثل في اللغة التي تستوعب الفاظها ومدلولاتها وكلماتها والعبارات المستعملة فيها القيم العليا وقضايا المعرفة .

وهذه القيم وهذه القضايا هي التي توجه الافراد وتحدد علاقة بعضهم ببعض كما تحدد علاقتهم بالمجتمع سواء المجتمع القومي او المجتمع الانساني .

ان حضارتنا العربية وليدة اللغة العربية ، واللغة العربية وليدة الحضارة العربية ، والحضارة العربية هدفت الى الخير والمعرفة وافادت الانسانية .

المصادر

- 1 — المقتطف — المجلد الثاني والخمسون ، ص 399 مقال الكاتبة «مي»
- 2 — مجلة « العربي » — العدد 58 مقال الدكتور شوقي ضيف ، الكويت
- 3 — كتاب « مهد العرب » للدكتور عبد الوهاب عزام ، سلسلة اقرا ، رقم : 40 ، القاهرة .
- 4 — مجلة « المغرب » — العدد الخامس ، وزارة الشؤون الخارجية ، محاضرة الدكتور طه حسين ، ص 62 ، المغرب .
- 5 — كتاب « الزينة » للشيخ الرازي — الجزء الاول ، ص 61 طبع دار الكتاب العربي بمصر .
- 6 — مجلة المقتطف — المجلد 52 ، ص 393 .
- 7 — كتاب تحرير التعبير — لابي الاصبع المصري ، ص 457 ، طبع المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة .
- 8 — نفس المصدر السابق .
- 9 — مجلة اللسان العربي — العدد الرابع رقم 24 ، المغرب الرباط ، المكتب الدائم للتعريب ، 1386 هـ ، 1966 م
- 10 — نفس المصدر السابق ، ص 25 .
- 11 — انظر مقالنا بمجلد اللسان العربي — العدد الرابع ، ص 40 ، المغرب الرباط ، 1386 هـ ، 1966 م .
- 12 — راجع مقدمة اللسان العربي — العدد الثالث ، ص 3 .
- 13 — المرجع السابق ، ص 3 .
- 14 — المصدر نفسه ، ص 4 .
- 15 — انظر العدد الرابع من مجلة اللسان العربي ، ص 6 المغرب الرباط .